

الفصل الأوّل

عصر البحتريّ

١ - الحياة السياسية

تمّ الأمر لبني العباس ، وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وصرف هذا الخليفة كل همّه إلى تثبيت عرش الخلافة العباسية ، بأنّ أعمل السيف في رقاب الباقين من بني أمية . وغيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم أثر محمود في إقامتها^(١) .

وظلت الخلافة تنتقل من قويّ إلى قويّ ، حتى آل أمرها إلى الأمين ، الذي عمل على نقل الخلافة من وليّ عهده: المأمون إلى ابنه: موسى ؛ فقامت بين الأخوين: الأمين ، والمأمون حروب ، انتهت بقتل الأمين ، وصعود المأمون عرش الخلافة ، في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة هـ^(٢) (سبتمبر سنة ٨١٣ م) . وانتهى عصر المأمون ، وقد شبت فيه ثورات في بعض أرجاء بلاده المترامية الأطراف ، أثار بعضها العلويون ، وبعضها أنصار الأمين المقتول ، وبعضها من لم يرض عن أفعال وزيره الأول : الفضل بن سهل ، كما غلب على طريق البصرة وعاث فيها قوم من أخلاط الناس يعرفون بالزط^(٣) ، سير المأمون إليهم من حاربهم سنة ست ومائتين هـ^(٤) . كما قامت بعض الفتن في شمال بلاد فارس . وقد استطاع المأمون أن يخمّد بعض هذه الثورات ، وأوصى ، قبل أن يموت ، أخاه

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٥٣ .

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٢٤ وما يليها .

(٣) الزط: جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الرطية . وقيل: الزط تعريب جت بالهندية ،

وهم جيل من أهل الهند . وقيل : إنهم جنس من السودان والهنود . والواحد زطي ، مثل الزنج والزنجي والروم والرومي . وقيل الزط : السابجة قوم من السند بالبصرة .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٢٥٨ وتاريخ الدولة العباسية ص ٢١٨ .

المتعصم أن يقضى على باقيها . ولما مات المأمون عام ثمانية عشر ومائتين هـ (سنة ٨٣٣ م) خلفه أخوه المتعصم ، فقضى على هذه الثورات^(١) ، ولكنه وضع بيده البذور التي عملت على ضعف سلطان الخلفاء العباسيين واضطراب أمرهم من بعده .

ذلك أن المتعصم كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم ، فاستخدم الأتراك ، واستكثر منهم ، فاجتمع له منهم عدد ضخم . نالوا الناس بالأذى في بغداد ، فكانوا لا يتورعون عن أن يجرؤوا الخيول في الأسواق ، فتدوس الضعفاء والصبيان . وكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعض أولئك الأتراك ، فقتلوه عندما يصلدم امرأة ، أو شيخاً كبيراً ، أو صبيّاً . أو ضريراً . ثم ارتفعت الأصوات بالشكوى منهم إلى المتعصم ، فقررّ رأيه على الرحيل من بغداد مع جنده ، وبنى لهم مدينة تدعى : « سامراً » منحوتة من « سرّ من رأى » ، وأقام معهم بغيرها^(٢) .

أخذ هؤلاء الأتراك ، وهم قوم جفّاء غلّف القلوب ، يجمعون السلطة في أيديهم ، ويعملون على أن يكون لهم الأمر والنفوذ ، وقد لمعت يومئذ أسماء طائفة من قوادهم كالأفشين ، وأشناس ، وإيتاخ ، ووصيف . وهم الذين رفع المتعصم من شأنهم ، ثم أدرك خطأه فيما فعل^(٣) .

وثبتت قدم الأتراك . بعد أن تبوأ العرش هرّون الواثق بن المتعصم ، عام سبعة وعشرين ومائتين هـ ، فاستخدم القائد التركيّ بغا الكبير في إخماد ثورة الأعراب الذين عاثوا فساداً في المدينة وما حولها^(٤) ، كما وكل إلى وصيف التركيّ أمر إخضاع الثائرين من الأكراد^(٥) الذين تطرّقوا إلى بلاد فارس .

صار هؤلاء الأتراك مصدر خطر يهدد سلطان الخلفاء ، بما قبضوا عليه من مقاليد السلطة ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة الحاكمة من شقاق

(٢) مروج الذهب ٣ : ٣٤٩ .

(٤) المرجع السابق ١١ : ١٢ .

(١) الكامل ٦ : ١٨١ و ١٩٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٨ .

(٥) المرجع السابق ١١ : ١٨ .

وإحن^(١)؛ فقد ذكروا أن الواثق غضب على أخيه : جعفر المتوكل ، ووكل عليه من يحفظه ، ويأتيه بأخباره ، فأنى المتوكل إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه . لا يكلمه ، ثم أشار إليه بالجلوس فجلس ، فلما فرغ مما بين يديه من الكتب نظر إليه ، وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت أسأل أمير المؤمنين الرضا عني ؛ فقال ابن الزيات لمن حوله : انظروا . يغضب أخاه ، ثم يسألني أن أسترضيه له !! اذهب ، فإذا صلحت رضى عنك ؛ فقام المتوكل أسفاً ، أما ابن الزيات فإنه كتب إلى الواثق : إن جعفرأ أتاني في زى الخنثين ، له شعر بفقاد ، يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه ؛ فكتب إليه الواثق : ابعث إليه ، فأحضره ، ومُرَّ من يجز شعر قفاه ، فيضرب به وجهه . قال المتوكل : لما أتاني رسوله لبست ثوباً جديداً ، وأتيته : رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عنتي ؛ فاستدعى حججاً ، فأخذ شعرى ، ثم ضرب به وجهى^(٢) . فلما مات الواثق سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هـ ، وولى المتوكل الخلافة . انتقم من ابن الزيات ، وقتله في تنور من الحديد ، رعوس مساميره إلى داخل . قائمة مثل رعوس المسال ، وكان ابن الزيات يعذب الناس فيه . أيام وزارته^(٣) .

ظهر الأثر السيئ لطغيان سلطة الأتراك في عهد المتوكل ، فقد أحسن المتوكل بتوغل الأتراك في الدولة . واستنثارهم بأموال الخلافة ، وإدارتها . وجيشها ، فأحب أن يتقل من نفوذهم . غير أن الأتراك قد شعروا أن قلب المتوكل متغير عليهم ، وأنه يدبر المكاييد ؛ ليتخاص منهم واحداً بعد واحد ، وشاهدوا بدء ذلك في إبتاخ الذى خادعه المتوكل حتى قتله^(٤) . فخاف الأتراك على سلطانهم ، ورأوا في رغبة الخليفة أن يجعل دمشق^(٥) عاصمة خلافته بدلا من « سامرا » نذير سوء ، فلعله أراد أن يستعين بعرب الشام عليهم . وحدث

(١) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .

(٢) مروج المذهب ٣ : ٣٧ .

(٣) أخبار الأم والملوك ١١ : ٥٥ .

(٤) الكامل ٧ : ١٤ .

(٥) الكامل ٧ : ١٨ .

أن عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ، بولاية العهد ، وهم : المنتصر ، والمعز ، والمؤيد ، وقسم البلاد بينهم . ولكن بطانة المتوكل غيرت قلبه على ابنه : المنتصر ، وكانت تعمل على تقريب ^(١) المعز ، فخاف المنتصر أن تذول الخلافة إلى المعز دونه ، وشعر بذلك الأتراك ؛ فالتف قوادهم حول المنتصر ، وزيتوا له قتل أبيه ، ليصعد إلى العرش من بعده ، ونفذت المؤامرة ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٥٢٤٧هـ ^(٢) (١١ ديسمبر سنة ١٨٦١م) ، إذ قتل المتوكل ، ونديمه الفتح بن خاقان ^(٣) ، في مجلس كان البحرى معهما فيه .

ولم يهنا المنتصر بالخلافة بعد قتل أبيه ، ولم يستقرّ على عرشها إلا أشهراً ستة ، مات بعدها بالذبح ، أو بورم في معدته . أو بمبضع مسموم ^(٤) ، وخضع المنتصر لإرادة الأتراك ، فدفع أخويه إلى النزول عن ولاية العهد ^(٥) ، حتى لا تصير إليهما الخلافة ، فيعملا على الانتقام ممن قتل أباهما .

توفي المنتصر في الخامس من ربيع الثاني سنة ٥٢٤٨هـ (٧ يولية سنة ١٨٦٢م) واختار قواد الأتراك أحمد بن محمد بن المعتم خليفة ، ولقبوه بالمستعين ، وسلبوا منه كل سلطان ، وصار الأمر لبغا ووصيف التركيين ، حتى قال في ذلك بعض الشعراء :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالوا له كما يقول البيغا

(١) المرجع السابق ص ٦٢ . (٢) الكامل ٧ : ٢٧ .

(٣) الفتح بن خاقان بن أحمد (المتوفى سنة ٥٢٤٧ - ١٨٦١ م) : أديب شاعر فصيح ، كان في نهاية القنطة والذكاء ، فارسي الأصل ، من أبناء الملوك . اتخذه المتوكل العباسي أخاً له وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وكان يقدمه على جميع أهله وولده . واجتمعت له خزافة كتب حافلة من أعظم الخزانين . وألف كتاباً سماه . « اختلاف الملوك » وكتاباً في « الصيد والجوارح » وكتاب « الروضة والزهر » ، وقتل مع المتوكل . وهو غير الفتح بن خاقان بن محمد الكاتب والمؤرخ الإشبيلي صاحب كتاب « قلائد العقيان » في أخبار شعراء المغرب . مات قتيلاً في مراكش سنة ٥٢٩ هـ - ١١٣٤ م بإيعاز من أمير المسلمين : علي بن يوسف بن تاشفين .

(٤) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٧٩ . (٥) المرجع السابق ص ٧٥ .

وكان المستعين عندما تولى الخلافة أطلق يد أتامش التركيّ ، وشاهدك الخادم . في بيوت الأموال ، وأباح لهما أن يفعلا بها ما يشاءان ، وأباح ذلك أيضاً لأمه ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق إنما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة . وما بقي بعد ذلك ينفق على العباس بن المستعين ، وكان في حجر أتامش الذي استولى أيضاً على أمور الخلافة ، فعزّ ذلك على وصيف وبغا ، وقتلاه^(١) . وأرسل المستعين إليهما . وقال لهما : ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة ، وإنما جعلتاني أنما وأصحابكما ، ثم تريدان أن تقتلاني^(٢) ؟ ! وشبت فتنة خرج على إثرها المستعين إلى بغداد . تاركاً «سامراً» . ولم يعجب الأتراك انصرافه ، ففضوا إلى السجن وأخرجوا منه المعتز . وكان المستعين قد سجنه وأخاه . فبايعوه بالخلافة . وجعلوا أخاه المؤيد وليّ عهده^(٣) . وهكذا صارت بغداد في جانب المستعين ، وسامراً في جانب المعتزّ . وهياً كل منهما الجيوش للحرب صاحبه . وصعد نجم المعتزّ ، ووجد المستعين أن الخير له في أن يقبل خلع نفسه بشروط تضمن له الحياة^(٤) . ولم يُصَبّ المستعين بهذه الفتن وحدها ، بل ثار في عهده العلويون في الكوفة وطبرستان^(٥) .

لم يكد الأمر يستقرّ للمعتزّ في رابع المحرمّ سنة ٢٥٢ هـ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦ م) ، حتى أراد أن يطمئن على كرسي الخلافة ، فقتل المستعين^(٦) ، ليأمن من انتقاضه ، وخلع أخاه المؤيد ، ثم قتله ، لما بلغه من أن بعض الأتراك يريدون إخراجه من السجن^(٧) .

ولم يصفُ الأمر للمعتزّ طويلاً . فقد انفقت كافة طوائف الجند على خلعه ، عندما طالبوه بعطائهم . فلم يجدوا عنده ولا في بيت المال مالا ، ثم إنهم قد عاملوه عند الخلع أسوأ معاملة . فقد دخلوا حجراته ، وجرّوا برجله إلى باب

(١) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٨٦ . (٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٧ . (٤) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٥) الكامل ٧ : ٤٨ و ٤٩ . (٦) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٧ .

(٧) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٦ .

الحجارة ، وتناولوه بالضرب بالدبابيس ، فلما خرج كان قمصيه مخرقاً في مواضع ، وآثار الدم على منكبيه . فأقاموه في الشمس في وقت شديد الحر ، وصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي أقيم فيه ، وأخذ بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده ، وأجبروه على خلع نفسه من الخلافة ، ثم دفع إلى من يعذبه ، ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم جصصوا سرداباً بالحص ، وأدخلوه فيه . وأطبقوا عليه بابه ، فأصبح ميتاً^(١) . وكان ذلك في أواخر رجب وأول شعبان سنة ٢٥٥ هـ .

وصعد المهتدي إلى عرش الخلافة بعد المعتز في ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ هـ . (١١ يولية سنة ٨٦٩ م) ، ويذكر التاريخ له صفات هي صفات الخليفة العادل ، فيذكر عدله وتقواه ، وكرهه للظلم ، وجلوسه للمظالم ، وإخراجه المغنين والمغنيات من «سامراء» . وإبطاله للملاهي^(٢) . ولكن ذلك لم يفته شيئاً أمام طوائف الجند ، فثاروا عليه . فولى مهزماً ، وبيده السيف ، وهو ينادى : يا معشر المسلمين ، أنا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتمكم ، فلم يجبه أحد ، فسار إلى باب السجن فأطلق من فيه ، وهو يظن أنهم يعينونه ، فهربوا ، ولم يعنه أحد^(٣) ، واقتص الجند أثره . وأرادوه على خلع نفسه فأبى ، فخلعوه ، بعد أحد عشر شهراً من خلافته ، وقتل في اليوم الثاني لخلعه في رجب سنة ٢٥٦ هـ . وإلى هذا الحد وصلت الخلافة العباسية والخلفاء العباسيون .

وأخرج المعتد من السجن وبويع بالخلافة في ١٦ رجب سنة ٢٥٦ هـ . (١٩ يونية سنة ٨٧٠ م) ، ونصب أخوه الموفق قائداً للجيش حسماً لما بين القواد من خلاف ومنافسة ، وقد استبد الموفق بالأمر ، وكان رجلاً ذا عزم وقوة ، يجب الإصلاح ، فترك المعتد في لهوه ولعبه ، فقد كان الغالب عليه الشغف بالطرب ، ومحبة أنواع اللهو والملاهي^(٤) ، وانفرد الموفق بالسلطان الحقيقي ،

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧١ ، والكامل ٧ : ٩٢ .

(٣) الكامل ٧ : ٩١ و٩٠ .

(٤) مروج الذهب ٣ : ٤٥٥ .

وضيق على أخيه ، حتى إنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار ، فلم يجدها ، فقال :

ليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممنوعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمنع بعض ما يجبي إليه^(١)

ومنذ بنيت سامراً اتخذها الخلفاء قاعدة حكمهم ، حتى كان المعتمد .
فتركها عائداً إلى بغداد ، ولم يعد إلى « سامراً » أحد من الخلفاء بعد ذلك^(٢) .

ومع ما عمله الموفق من إعادة شيء من الهيبة للخلافة لم يستطع أن يحول
دون محاولة ولاية الأطراف اقتطاع أجزاء من جسم الدولة ، والاستقلال بها بعد
أن رأوا استبداد الأتراك بالخليفة ، وانشغالهم بالتكالب على جمع الأموال ؛
فراينا أحمد بن طولون يحاول الاستقلال بمصر^(٣) ، ويدخل في حوزته بلاد الشام
والثغور ، وراينا السامانيين يؤسسون دولة عظيمة فيما وراء النهر^(٤) ، وبعض
العلويين يحاولون الاستيلاء على بعض الأقطار^(٥) ، والصفارين يعملون على
الاستيلاء على فارس وغيرها^(٦) .

وشغلت ثورة الزنج^(٧) جانباً كبيراً من عصر المعتمد ، فقد خرج في
فوات البصرة رجل زعم أنه من نسل عليّ بن أبي طالب ، وأخذ يجمع إليه السود ،
يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال ، والرق ، والتعب ، ويعدهم ، إن هم اتبعوه ،
أن الله سيبيدهم عن هذا العناء ، ويرفع أقدارهم ، ويملكهم العبيد والإماء ، فاتبعه
خلق كثير ، واستولى بهم على بلاد عدة ، وشبت بينه وبين أهل البصرة معركة
عنيفة . غرق فيها طائفة كبيرة من أهل البصرة ، وقتلت طائفة ، قال صاحب

(١) الكامل ٧ : ١٨١ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ و ١٦٤ . (٤) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٩٨ و ١٦٣ . (٦) المرجع السابق ص ١٠٣ و ١١٥ .

(٧) راجع أخبار الزنج في الكامل وأخبار الملوك في حوادث سنة ٢٥٥ هـ ، إلى سنة ٢٧٠ هـ .

الكامل^(١) : « وهرب الباقون إلى الشط . فأدركهم السيف . فمن ثبت قتل . ومن ألقى نفسه في الماء غرق . فهلك أكثر ذلك الجمع . فلم ينج إلا الشريد . وكثر المفقودون من أهل البصرة . وعلا العويل من نساءهم . وهذا يوم البداء الذي أعظمه الناس . وكان فيمن قتل جماعة من بني هاشم وغيرهم في خلق كثير لا يحصى . وجمعت للخبث الرؤوس . فأثاه جماعة من أولياء المقتولين ، فأعطاهم ما عرفوا . وجمع الرؤوس التي لم تطلب . وجعلها في خزينة . فأطلقها . فجاء الناس . وأخذوا كل ما عرفوه منها . وقوى بعد هذا اليوم . وتمكن الرعب في قلوب أهل البصرة منه . وأمسكوا عن حربه » .

وقد استفحل أمر الزنج . فشمروا الموفق عن ساعد الجد . ووقعت بينه وبين صاحب الزنج حروب ووقائع انتصر الموفق في آخرها . وقتل صاحب الزنج في أواخر عام سبعين ومائتين هـ . بعد أربعة عشر عاماً . قضاها في الإفساد والتخريب .

ويظهر أن الموفق نجح في كف طغيان قواد الأتراك . فامتد عمر الخليفة . وظل على عرشه حتى توفي ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٥٢٧٩ (١٥ من أكتوبر سنة ٨٩٢ م) . وبويع المعتضد بالخلافة يومئذ . قال المسعودي : « ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد سكنت الفتن . وصلحت البلدان . وارتفعت الحروب . ورخصت الأسعار . وهذا المهرج . وكان مظفراً . قد دانت له الأمور . . . وأدب له في أكثر المحالين عليه ، والمنازدين له . . . وخلف المعتضد في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار . ومن الورق أربعين ألف ألف درهم . ومن الدواب والبهائم والحمير والجمال اثني عشر ألف رأس ، وكان مع ذلك شحيحاً بخيلاً . ينظر فيما لا ينظر فيه العوام . . . وكان مع ذلك قليل الرحمة . كثير الإقدام . سفاكاً للدناء ، شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله »^(٢) .

وفي عهد هذا الخليفة مات البحرى كما أنه ولد في عهد المأمون .

٢ - الحياة الاجتماعية

اختلط العرب بعد أن تمت الفتوح في العهد الأمويّ بكثير من الأمم المختلفة جنساً ولغةً وديناً واجتماعاً، فقد فتحوا البلاد من الأندلس وشمال إفريقيا ومصر والشام والعراق وفارس إلى ما وراء فارس، واتصلوا بأعظم مدينتين قائمتين يومئذ، وهما: مدينة الفرس ومدينة الروم؛ فكان لهذا الاختلاط، والاتصال أثره الكثير في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي.

ذلك أن العرب في العصر الأمويّ ترفعوا عن مخالطة الأعجم، اعتزازاً بجنسهم، فلما جاء العصر العباسي ارتفع شأن الفرس، بما كان لهم من فضل في تأسيس الدولة، فأخذوا يجهرون بما آثرهم، وما كان لهم من تاريخ قديم ومجد، وأنكر العرب عليهم ذلك، وطال الجدل بين الفريقين، وكان من ذلك انتشار مبدأ الشعوبية^(١) الذي يقرّر ما كان للشعوب غير العرب من آثار في الفكر والمدنية.

وكان من آثار ارتفاع شأن الفرس وغيرهم من الموالى، وما أحسوا به من حرية بعد ضيق في العصر الأمويّ - أن أطلقوا لأنفسهم العنان في البحث الدينيّ. ووازوا بين عقائد أديانهم القديمة وعقائد الدين الإسلاميّ، فانتشرت الزندقة والإلحاد. وتبع ذلك غلبة الشهوات الجسدية على طائفة المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحاً من قبل. من أنواع الملاذ؛ وكان من الطبيعي أن ينهض في مثل هذا المجتمع طائفة من الوعاظ، تدعو الناس إلى سواء السبيل، وتأمّرتهم بالتزام جادة الدين.

وشاع في العصر العباسيّ تسرّي الجوارى، وكان خلفاء بني العباس منذ الهادي أبناء سراري^(٢). ما عدا الأمين فإنه ابن زبيدة بنت جعفر المنصور،

(١) تاريخ الأدب العربي، في العصر العباسي للأستاذ السباعي بيومي ص ١١. والشعوبية مبدأ من يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم؛ فقبل لمحتقر أمر العرب: شعوب. أضافوه إلى الجمع لقلبيته على الجليل الواحد كقولهم: أنصاري.

(٢) راجع مروج الذهب في تقديمه لكل خليفة.

وامتلاأت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء بالجواري والقيان^(١)، وكان لذلك أثره الكبير في النشء من ناحيتي الجسم والعقل، وكان لهؤلاء القيان أثرهن في الأدب العربي يومئذ .

وقد أثر اختلاط العرب بقوم يرون لأنفسهم مجداً ورفعة في التاريخ . وهذا النسل الجديد من أبناء الجواري في أن تخلى العرب عن كثير من مناقبهم التي شيوا عليها في بداوتهم ، وهذبها الإسلام في صدر إسلامهم ، كالاستقلال ، والشجاعة ، والنجدة ، والأنفة ، والعفة ، مما جبلوا على مدحه ، وكان له في أدبهم صور رائعة ، وأصبحنا نجد عندهم الضعف ، والاستسلام ، والغدر^(٢) .

كان المجتمع يومئذ مكوناً من طبقتين : طبقة الخاصة ، وهي الخليفة ، وأهله ، ورجال دولته ، والأغنياء من الشعب . والثانية طائفة العامة ، وهي المزارعون من أهل القرى ، والصناع والتجار في المدن . أما طبقة الخاصة فقد استأثرت بالخيرات والمال ، تكتنزه حيناً ، وتنفقه على لذاتها حيناً آخر . فكان الترف مثلهم الأعلى ، وحسبك أن تعلم أنه عثر عند أم المعتز على مقدار خمسمائة ألف دينار ، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ، ومن جملتها دار وجدوا فيها ألف دينار ، وثلاثمائة ألف دينار ، ووجدوا عندها في أحراز زمرداً لم ير الناس مثله ، ومن اللؤلؤ الكبار . والياقوت الأحمر ما لم يوجد مثله^(٣) . وقد كان هذا المال سبباً في انغماس طبقة الخاصة إلى أذقانهم في الترف والحضارة ، فبنوا القصور العالية ، تحف بها الحدائق الوارفة الظلال ، وتجري من تحتها الأنهار ، وتقام في أفنيها البرك الرخامية . كما لبسوا أرق أنواع الحرير ، وجعلوا حياة العمل لباساً ، وحياة اللهو لباساً آخر ، وأكلوا ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وشربوا ما شفى وراق من أنواع الشراب ، وحشدوا في قصورهم أجمل أنواع الأثاث ، واقتنوا الأحجار الكريمة والجواهر ، وتأفقوا في تزيين حيطانهم وسقوفهم بصور الذهب والفضة ، وتفنن الخلفاء في الاحتفال بمواكبهم .

(١) القيان : جمع قينة وهي : الأمة المنية .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي للأستاذ السباعي ص ٢٥ .

(٣) الكامل ٧ : ٧٨ .

وإظهار الزينة والأبهة ، مما أخذ بألباب الناس ، وبخاصة الشعراء .

كان هذا الترف سبباً في أن النفوس قدّست المادة يومئذ ، لتشبع جشعها ، فأحبّ الناس المال حباً شديداً ، ومضوا يريدون الحصول عليه من أى طريق كان . فانتشرت الرشوة انتشاراً مخيفاً ، فأثرى من بيدهم تصريف الأمور إثراء سريعاً ، وتبع ذلك أن ذوى الأمر كثيراً ما أقدموا على استصفاة اموال دولاء^(١) . لعلمهم أنّها جمعت من الحرام .

وكان هذا المال أيضاً سبباً من الأسباب التي كانت تدعو الجند إلى الشعب ، فإذا رأوا طائفة منهم قد استأثرت ببعض المال . أو رأوا مالاً عند الخليفة أو أهله ، ثاروا يريدون نصيبهم من هذا المال^(٢) ، وقد رأينا بعض الآثار لجشع طوائف الجند في الحوادث التي أودت بحياة بعض الخلفاء . ولهذا كان القواد وكتابهم في رفاهية من العيش وترف^(٣) .

كما كان هذا المال سبباً في الخلاف بين قادة الجند^(٤) ، وإيقاع بعضهم ببعض . تغابت روح النفعية في ذلك العصر ، وسادت هذه الروح الصلّات التي تربط بين الناس ، لاندفاعهم في طريق المادة ، ورغبتهم في أن يحصلوا على المال من أى طريق كان .

أما طبقة العادة فكانت كادحة مجذّة؛ لتظفر بما يحفظ عليها الحياة ، ولهذا كان هذا العصر عصراً خصباً لخروج صاحب الزنج الذي أخذ يمتدّ أتباعه بحياة أفضل من حياة التعب والشقاء التي يقاسونها ، وذلك للفرق الشاسع بين الطبقتين ، وقد رأينا استجابة قوية لدعوته ، كافت الدولة كثيراً من الجند والجهد والمال .

ولم يكن للدّين سلطانه المطلق على نفوس الخلفاء والوزراء ، إذا استثنينا القليل منهم كالمهتدى ، فتسامحوا في شرب النبيذ ، ومالوا إلى اللهو ، وقلّ مثل

(١) أخبار الأم والملوك ١١ : ١٠ ، ١٦٠ .

(٢) الكامل ٧ : ٩٠ . (٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) تاريخ الأم والملوك ١١ : ١٥٦ .

ذلك في القواد والهند ، حتى لقد ثاروا على المهتدى حينما أراد أن يحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء ، فقبل له : الرسول كان مع قوم زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، وأنت إنما رجالك تركي ، وخزري ، ومغربي ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا^(١) .

وإذا كان الشعب قد أحب المهتدى فذلك لعدله ، ورغبته في رد المظالم ، ولكنهم استثقلوا منه رغبته في أن يحملهم على آداب الدين والعمل بمبادئه^(٢) .
ولكن مظهراً من مظاهر الدين بقي له جلاله وقيمته ، وهو مظهر الحج ، يعنى به الشعب ، وتعنى به الدولة . فتقيم كبيراً من كبرائها يكون على رأس حجاجها في كل عام .

٣ - الحياة العقلية

وجه بنو العباس همهم نحو العلم والثقافة ، وشغفوا بعلوم الأمم الأجنبية ذات الحضارة والمدنية ، فأقبل العلماء على التأليف والترجمة ، وزادهم إقبالاً على عملهم حث الخليفة أبي جعفر المنصور عليه ، وحاه الأئمة على جمع الحديث والفقهاء ، وبذله ، على بخله . الأموال الجزيلة للعلماء . ولم يقتصر المنصور على تعصيد العلوم الإسلامية ، بل أوعز إلى العلماء والمترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب ، والسياسة ، والحكمة ، والفلك ، والتنجيم ، والمنطق ، وتابعه في ذلك أولاده وأحفاده ، وما انتهى عصر المأمون والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود إلا ترجم منه أكثر من كتاب^(٣) . وانقسمت العلوم إلى قسمين عظيمين : العلوم الإسلامية : من شرعية ولسانية . والعلوم الدخيلة : من فاسفة إلهية وطبيعية

(١) مروج الذهب ٣ : ٤٣٣ . (٢) المرجع السابق ص ٤٣١ .

(٣) تاريخ اللغة والآداب في العصر العباسي للأستاذ السكندري ص ٤٨ و ١٨٢ .

وربماضية . وغيرهما . وقد ورث القرن الثالث الذى عاش فيه البحرى ما أنتجته النهضة الفكرية من أوائل أيام الدولة العباسية ، ثم أضاف إلى ذلك ثماراً جديدة فى ألوان المعارف .

أما العلوم الشرعية؛ كتفسير القرآن، وجمع حديث الرسول الكريم، واستنباط أحكام الدين مما عرف بعلم الفقه، والتدليل على العقائد الدينية مما عرف بعلم الكلام — فقد درست هذه العلوم فى القرن الذى عاش فيه البحرى، وعرفت بعض المؤلفات فيها. كتفسير إسحق بن راهويه^(١) المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

وأما العلوم اللسانية. كالنحو والصرف فقد كان القرن الثالث عصر عناية بها : ظهر كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ . فى النحو على مذهب البصريين ، وشرحه تلميذه الأحمش ، كما ظهر كتاب الحدود للفراء^(٢) المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فى النحو على مذهب الكوفيين . ونشأ فى البصريين والكوفيين طبقات تشرح ، وتكمل - وتختصر ، وتضع الاصطلاحات . وكان بين البصريين والكوفيين يومئذ نوع من الجدل والمناظرة. فلما كانت بعض الفتن ، كثورة الزنج نزح الفريقان إلى «بغداد» ، ونشأت طريقة هى خليط من المذهبين ، وتعرف بطريقة البغداديين . وأما اللغة ، فقد حاول العلماء يومئذ جمع ألفاظ اللغة فى كتاب ، بعد أن وضع بعض العلماء رسائل صغيرة فى فئات من الألفاظ التى تتصل بموضوع واحد ، كالتى تجمع أعضاء الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد . وبما زاد اهتمامهم بها أنهم رأوا القوم يجهلون معانى الألفاظ . والفرق بين معانى الكلمات ، كما يحدثنا بذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه^(٣) .

وأما علوم البلاغة ، ولم تكن قد تميزت بعد بفروعها الثلاثة المعروفة اليوم : من معان ، وبيان . وبديع . فقد شهد هذا العصر مبدأ تكوينها فى كتاب مجاز القرآن الذى ألفه أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، عقب أن سئل فى مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى : « طلبها^(٤) كأنه رعوس الشياطين » ،

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى للأستاذ السباعى يربى ص ٢٤٠ و ٢٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٢٢٨ . (٣) أدب الكاتب ص ٤ .

(٤) طلع النخلة : ما يخرج منها كأنه نعلان مطبقان ، والحمل بينهما منضود .

وأن الشياطين ورعوسها لم تعرف ؛ فأجاب بأنه على حدّ قوله :

أبقتاني والمشرقيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١) !

وكالذى كان من الجاحظ في كتابه: « البيان والتبيين » من تعرضه لبعض مسائل البلاغة ، من غير أن تتضح معالم هذه العلوم ، أو تتفرغ مسائلها ، وتنحصر على النحو الذى نراه اليوم . كما أنّ غرام بعض الشعراء المحدثين بالمحسنات والزخارف الصناعية دفع رجال الأدب في ذلك العصر إلى دراستها ، ووضع أسماء لها ، ومعرفة نماذجها في الأدب الموروث . وفي القرآن الكريم ، والسعى وراء استقصائها ، وجمع الأمثلة لها ، وتمخض ذلك كله عن كتاب لابن المعتز سماه : « البديع » ، وليس كل ما فيه من علم البديع الذى نعرفه اليوم ، بل أدخل فيه بعض مسائل البيان كالاستعارة والكنائية .

ومن تلك العلوم جمع الأدب الموروث ؛ فقد عنى العلماء بجمع الشعر ، وبدت هذه العناية منذ صدر الدولة العباسية ، فقد جمع المفضل الضبّي المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتابه المفضليات بأمر أبي جعفر المنصور ، فلما جاء القرن الثالث رأينا أبا تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ يجمع كتابه « الحماسة » ، ويؤوبه . وبدل به على حسن اختياره ، كما أن له مجموعاً آخر سماه : « فحول الشعراء » . جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والخضرمين والإسلاميين ، وله كتاب « الاختيارات من شعر الشعراء »^(٢) ، ثم يجيء بعده البحترى فيعارضه . ويجمع كتاباً دعاه : « الحماسة » أيضاً .

وكانت العناية بجمع الشعر تغذّيها دوافع كثيرة ، منها الاقتباس من المعاني القديمة ، ومنها تقويم الألسنة وتعديلها بحفظ الشعر العربىّ البليغ ، ومنها استنباط قواعد النحو والصرف ؛ لأن أخذها من الشعر أسهل ، ومنها معرفة المعاني اللغوية للمفردات . وعلى هذا رأينا المبرد صديق البحترى ، يجمع في كتابه طائفة صالحة من الشعر يدرس فيها الأحكام ويقتبس القواعد ، ويعرف المعاني اللغوية .

(١) المشرق : السيف . والمسنونة : الريح ركب فيها السنان . والأغوال : جمع غول وهي :

شيطان يأكل الناس . والبيت لامرئ القيس .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٢١ .

كما كان ذلك وسيلة إلى نقد ما أثير من الشعر العربي ، وقد شهد عصر البحترى كذلك أوائل الكتب التي ألفت في نقد الشعر ، جمع المؤلف في بعضها ما وصل إليه من آراء السابقين حتى عصره ، وما لهم من نظرات نقدية في الشعر الجاهلي ، وبدا في بعضها النزاع الذي كان دائراً بين طائفة المجددين والمحافظين ، فظهر في هذا العصر كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ . وتلاه الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

وإلى جانب دراسة الشعر ونقده كان العلماء كذلك يجمعون النثر ويدرسونه ، فظهرت الكتب الجامعة لأشتات من الخطب ، وأنواع من الرسائل ، والعهود ، والمكاتبات ، يشرحونها ويعلقون عليها . ويروون الأخبار التي تتعلق برجالها ، وربما قصدوا بإيراد هذه النماذج بيان معنى بلاغة الكلام . وكان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أول من سن هذه الطريقة في كتبه التي من أهمها « البيان والتبيين » ، وتبعه أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، وأبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، في كتابيه : « الكامل ، والروضة » . والتاريخ يتعلق بالأدب ، فلم يكده يطلع القرن الثالث حتى كان التاريخ متميز الأنواع : بين تاريخ أنساب ، وتاريخ سيرة الرسول الكريم ، وتراجم ، وتاريخ المغازي والفتوح ، وغيرها ، وكان ذلك ممهداً لوضع تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كهذا الذي وضعه ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ . وإلى جانب دراسة التاريخ درست الجغرافية . ففي عصر المأمون ترجمت كتب اليونان فيها ، وصححت أعاليط حكماء اليونان في الفلك والجغرافية^(١) ، كما ألف ابن خرداذبة صديق البحترى والمتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، كتابه المشهور : « المسالك والممالك »^(٢) بعد أن جاب أنحاء المملكة الإسلامية . وقد استفاد البحترى من ذلك كله غالباً في رحلاته ، التي كان يرحلها في الشرق والغرب حتى قال : مالى وللأيام ، صرف صرفها حالى ، وأكثر في البلاد تقلى^(٣)

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندرى ص ٥٣ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢١٣ .

(٣) صرفت الأيام حاله : بدك . وصرف الدهر : نوائبه .

أسمى زميلاً للظلام : وأغتندى ردفاً على كفل الصباح الأشهب^(١)
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأ قصى . وطوراً مغرباً للمغرب

وبما ينبغي أن يوجه إليه النظر أن التصنيف في الأدب يومئذ لم يتبع غالباً منهج التبويب المنطقي المنظم ، فلم يكن المؤلف يستوفى الموضوع الذي يكتب فيه ، بل تراه ينتقل من غرض إلى غرض ، ومن فكرة إلى أخرى ، إن عنت مناسبة ، أو ظهر ما يدعو إلى الانتقال ، فهو يسلمك من باب إلى باب ، ولو لم تستكمل الأول دراسة وفحصاً ، وقد يعود بك إلى الموضوع السابق . ويرون في اتخاذ هذه الطريقة صرفاً للقارئ عن الملل والسآمة . كما ترى ذلك في كتب الجاحظ ، وابن سلام ، والمبرد الذي علل اتباع ذلك بقوله : « لتكون فيه استراحة للقارئ » وانتقال ينفى الملل ؛ لحسن موقع الاستطراف ؛ ونحفظ ما فيه من الجدة بشيء يسير من الهزل . يستريح إليه القلب ، وتسكن إليه النفس . قال أبو الدرداء (رحمه الله) : « إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق »^(٢).

ولكن ذلك لم يمنع بعض المؤلفين من التبويب الدقيق كما فعل أبو تمام في حماسه ، بل إن البحترى غالى في التبويب . وتعمق في جمع النظير إلى النظير ؛ وأضعافاً شديداً التشابه بعضه إلى جوار بعض ، في حماسه التي سنتحدث عنها .

أما العلوم الدخيلة فهي أربعة أقسام : طبيعية . كالكيمياء ، والطبيعة . والطب ، والصيدلة ، والفلاحة ، وعلم الحيوان والنبات والجماد . ورياضية . كالجبر ، والحساب ، والهندسة ، والحيل (الميكانيكا) . والفلك ، والجغرافية النظرية . وإلهية ، وتشمل كل ما وراء الطبيعة . وسياسية . كتنظيم الملك ، وتديير المنزل ، وتديير المال ، والأخلاق . وكانت الكتابة في هذه العلوم تتبع النهج الذي كتبت به في لغاتها ، ولذلك بقي نظامها وترتيب مسائلها كما وضعه

(١) الردف : الراكب خلف الراكب . والأشهب : ما كان ذا بياض يخالطه سواد .

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ .

أصحابها ، وكانت الترجمة في أول أمرها ليست كما ينبغي . لقلّة من يجيد اللغتين : العربية . والأعجمية . فلما اتسعت الترجمة في زمن المأمون أقبلوا يصحّحون ما ترجموا من قبل . ويترجمون ما يجلبه إليهم المأمون من كتب الفلسفة التي أحضرها من القسطنطينية وغيرها من بلاد آسيا الصغرى (١) . وقد كان للفلسفة تأثير كبير في ذلك العصر ، فتأثرت بها العلوم الشرعية . وتأثر بها الأدب ، وقد ثار البحرى على من أراد أن يخضع الشعر لقواعد المنطق ، كما سرى .

أما الإنتاج الأدبي : شعره ونثره . فإن الكتابة الإنشائية قد بلغت في هذا العهد شأواً بعيداً من الازدهار والتقدم . وكان لها ديوان يرأسه كاتب كبير ، يشرف على النهوض بها ، وكانت الكتابة حينئذ هي السبيل إلى الوزارة ، فوزراء المأمون والمعتمدين والوائق من نوابغ كتاب عصرهم .

وكانت طريقة عبد الحميد الكاتب هي الطريقة التي سار عليها معظم الكتاب في هذا العصر . فترى فيها قلة الكلف بالسجع ، والعناية قبل كل شيء بالمعنى . ولما جاء الجاحظ أروع بالتوازن الموسيقى في كتاباته . فقسم العبارة أقساماً قريبة التساوى . وكانت ترجمة العلوم الدخيلة إلى اللغة العربية من الأسباب التي ثقفت عقول الكتاب . فحاولوا استقصاء عناصر الموضوع . وترتيب هذه العناصر . وحسن التعليل . وإيراد الدليل . والحق أن تلك الطائفة التي ربيت في عصر المأمون قد تغذت بالبلاغة العربية . والآداب الدخيلة ، فنتج ذلك كله طرازاً ممتازاً في الكتابة العربية . وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة من النابغين في الكتابة يومئذ مثل أحمد بن يوسف . وعمرو بن مسعدة ، وابن الزيات . والجاحظ . والصول . وآل وهب . وبنى المدبر . والحسن بن مخلد (٢) .

واستعملت الكتابة لأغراض شتى بين رسائل ديوانية تتعلق بإدارة الملك ، وتدابير شؤون البلاد . وهي الرسائل التي كان يشرف عليها ديوان الإنشاء ؛ وبين رسائل إخوانية ، ورسائل تناولت تناولاً أدبيّاً بعض الأمور الاجتماعية وغيرها

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندري ص ٥٣ .

(٢) ارجع في هذه الشخصيات إلى كتاب طيف الوليد .

كرسائل الجاحظ . كما ازدهر الشعر في النصف الأول من القرن الذي عاش فيه البحرى ،
تحت كنف الخلفاء والوزراء ، بل شارك بعضهم في قول الشعر ، فمأغنى به للمنتصر قوله :

رأيتك في المنام أقلّ بخلا وأطوع منك في غير المنام
فليت الصبح باد ، ولا نراه وليت الليل آخر ألف عام
ولو أنّ النعاس يباع ببيعاً لأغليت النعاس على الأنام^(١)

وعرض على المهتدى يوماً دفاتر خزائن الكتب ، فإذا على ظهر كتاب منها
هذه الأبيات ، قالها المعتز بالله ، وكتبها بخطه ، وهى :

إني عرفت علاج الطب من وجع وما عرفت علاج الحبّ والخدع
جزعت للحبّ ، والحمى صبرت لها إني لأعجب من صبرى ومن جزعى
من كان يشغله عن إلفه وجع فليس يشغلنى عن حكيم وجعى
وما أملّ حبيبي ، ليتنى أبداً مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معى
فقطب المهتدى بالله وجهه ، وقال : حدث ، وسلطان الشباب^(٢) .

ولا بن الزيات ديوان من الشعر ، ومن الأمراء الشعراء أمراء البيت الطاهرى ،
كعبيد الله^(٣) بن عبد الله ، الذى حدثت بينه وبين البحرى محاورة شعرية ،
تجلدها فى ديوانه

غير أنه مما يلحظ أن كبار الشعراء فى تلك الحقبة نبغوا فى عهد الاستقرار
السياسى قبل مصرع المتوكل ، فلما اضطربت الأمور باستبداد الأتراك لم
ينجب العصر شعراء كهؤلاء الذين رأيناهم فى عهد الاستقرار ، وكان امتداد
عمر هؤلاء مما جعل عهد الاضطراب الذى سقطت فيه الخلافة بعد المتوكل -
عامراً بالشعر ؛ وبعد موتهم أقفر الميدان من الشعراء الكبار .

وقد شهد القرن الذى عاش فيه البحرى أبا تمام الذى أفرط فى استخدام
المحسنات البديعية ، وغالى فى حبّ هذه الصناعة ، غير أنّ كثيراً من الشعراء
الذين عاصروا البحرى لم يفرطوا إفراط أبى تمام فى ملء شعرهم بهذه الطريقة
الجديدة فى استخدام المحسنات .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٨ .

(١) مروج الذهب ٣ : ٣٩٩ .

(٢) راجع طيف الوليد ص ٥٦ .

ولم تخرج أغراض الشعر يومئذ عن الأغراض التي عرفت قبل هذا العصر : من مدح ، وفخر ، وغزل ، وهجاء ، ورتاء ، ووصف ، وتهكم ... إلخ ، وازدهر في هذا العصر وصف الطبيعة ، ووصف مظاهر الحضارة التي ارتقت في العصر العباسي . ولقد كان الحديث عن الشعر والشعراء تعمر به مجالس الأدباء والخلفاء الأولين في ذلك العصر ، فينشدون الشعر ، ويوازنون بين الشعراء ، وفي الكتب الأدبية والتاريخية^(١) التي تناولت هذا العصر كثير مما دار في هذه المجالس عن الشعر ، ونقله ، والموازنة بين الشعراء .

وما يتصل بالشعر فن الغناء ، فبينهما صلة وثيقة ، وقد ظلت صناعة الغناء تتدرج حتى وصلت أوج كمالها في العصر العباسي عند إبراهيم بن المهدي ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وإبراهيم الموصلي المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، وابنه إسحق المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، وظل الاهتمام بها في أيام البحري ، فكان الخلفاء والوزراء يشجعون المغنين ، ويتخذون منهم نداء ، ويجزلون لهم في العطية ، وما علمنا خليفة أعرض عن سماع الغناء في هذا العصر إلا ما كان من المهدي عقب توليته ، فإنه أخرج المغنين ، والقيان من «سامراء» ، كما سبق أن ذكرنا ، غير أن زمنه كان قصيراً . وكان استبداد الأتراك بشئون السلطان ، واستبداد الموفق بأخيه المعتمد ، مما ساعد على انصراف الخلفاء إلى اللهو وسماع الغناء . وفي هذا العصر ألف حسن بن موسى النصبى كتاباً في الأغاني ، منها كتاب ألفه للمتموكل ، قال عنه ابن النديم : « إنه ذكر في هذا الكتاب أشياء من الأغاني لم يذكرها إسحق ، وذكر من أسماء المغنين والمغنيات في الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب »^(٢) . تلك كانت حال الشعر والكتابة ، أما الخطابة فقد ضؤل أمرها ، بعد استقرار أمر الدولة ، وكان لا انتقال السلطان إلى أيدي الأتراك أثر في اضمحلال شأن الخطابة التي كادت تكون مقصورة على خطب الجمعة والأعياد ، وكان الخلفاء يلقونها بأنفسهم على المنابر ، إذ كانوا يخرجون إلى الصلاة في أبهة وزينة ، وإن كنا لا نعدم خطباً غير مسجدية ، كخطب صاحب الزنج التي كان يجمع بها الجموع ، يمنيهم بعذب الأمانى وحلو الوعود .

(١) راجع أخبار أبي تمام للصولي ، ومروج الذهب للمسعودي في أماكن كثيرة .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٠٨ .